الفصل السابع عشر
"قل لي ولو كذبًا"

خرجت جنّة من المطبخ تحمل الكؤوس، ومن خلفها سارة تمسك بزجاجات من العصائر المختلفة، تقابلَت أعين العشاق المتلهّفِين منهم والمعاتبين؛ فكانت نظرة هشام تحمل من الوَلَه أقصى مداه، والبريق الملتمع بعينَي جنة قد شعّ حولها هالة من الهوَى؛ لتصبح أميرة سقطت في شِباك فارسها المغوار، بينما كانت حدقتَا سارة تُطلِق سهام العتاب المتوجّه بالحب إلى زوجها، أكثر مَن عشقته بحياتها، في حين أنه كان يتقبّل تلك السهام برضوخ تام؛ لعل يكون نزفه تكفيرًا عن ذنب ارتكبه في حق حبيبته التي طالما أحبّها ولم يعرف كيف يعبر عن ذلك الحب؛ فدائمًا وأبدًا يشعر أن محاولاته اليائسة ستسيء إلى حبه وتقلّل من شأنه؛ فيُؤْثِر كتمانه معتمدًا على لغة القلوب والأعين، فهما في ناظريه أعظم ما يمكنه الإفصاح عن ذلك الحب، لكن أليس هذا ظلمًا لدور اللسان في التعبير عما يعتري الفؤاد؟! لمَ يلجمه ويقسو عليه كما لو أن ترجمة مشاعره إلى كلمات ستفقدها قيمتها؟! ربما قد تأثّر بكاظم الساهر -و هو بالمناسبة مطربه المفضل-؛ فيودّ أن يردد لها:

فإذا وقفتُ أمام حسنِكِ صامتًا ... فالصّمْتُ في حَرَمِ الجَمَالِ جَمَالُ

كلماتُنا في الحب تقتُلُ حبَّنَا ... إنّ الحروفَ تمُوتُ حين تُقَالُ

ولا يدري أنّ فؤادَها يعاني من صمته متعطشًا لكلمات تروي حبها؛ فترد عيناها:

قل لي ولو كذِبًا كلامًا ناعمًا قد كاد يقتلني بكَ التمثالُ

لم يستطع أحمد مرورَ تلك اللحظات التي طالت دون شعورهم بها مرور الكرام؛ فأخرج هاتفه والتقط صورة خلسةً يكرّس بها تلك اللحظة، وكان يقصد بها مالك وسارة، لكن في خلفِيّتِهما ظهر العشق المكنون بين هشام وجنة، وما إن التقطَت عيناه ذلك حتى ابتسم وارتفع بناظريه؛ ليرافق نظراتهما الحالمة؛ فحمحم قائلًا ليستفيق الجميع من أحلامه:

- احم احم.. طب إيه؟ هتحنّسُونا بالعصير ده كتير؟

نكز هشام مالكَ مشيرًا بطرفِه كي ينهض ويفعل ما لقنَّه له؛ فأومأ مالك وحثَّ خطواته ناحية سارة فأشرقَت شمس حبها، حاولَت إخفاء ابتسامتها وأشاحت بعينيها عنه، لكنه أجبرها على النظر بعينيه، ما إن أمسك بيديها المثبتتين على وعاء العصير مداعبًا أناملًا لتسري رجفة في سائر جسدها، تحثّ قلبها على زيادة نبضه؛ لربما هناك هجوم عليه قد احتبسَت له الأنفاس برئتيها؛ فشرع مالك في شنّ حبه فأخذ منها الوعاء المتبقّي بيدها ووضعه على الطاولة، ثم قال:

- سارة! قُدّام الكل بقولّك أنا آسف.. وبحبك.

شفقَ وجهها بحمرة الخجل؛ فشعرت بسخونته، واتخذت ابتسامتها صحيح دربها إلى ثغرها؛ فضمها إلى صدره لتتخذ منه حصنًا تخبئ به، وجهها

الذي أدركه الخجل والحياء تعتصر عينيها بفرح عارم؛ فالتفت مالك إلى هشام الذي غمز له كمَن يقول "أي خدمة ."

وبينما مضى الجميع في ارتشاف العصائر تنحْنَحَت جنة وأردفت موجهة حديثها إلى هشام، لقد طالت لحظات تفكيرها في حجة للتذرّع بها لتحادثه:

- صحيح يا هشام، هعمل إيه في موضوع امتحانات الميد ترم؟ دي فاتتني كلها.

- ماتقلقيش، أنا اتكلّمت مع عميد الكلية واتّفقنا إنه نظرًا للظروف امتحاناتك هتكون أونلاين.

أخذ رشفة أخرى من كأسه، ثم قال بابتسامة:

- ماتقلقيش، أنا عارف إنها آخر سنة ليكي في الجامعة، وصدّقيني أنا أكتر واحد حريص على إنك تخلّصي.. احم قصدي تنهيها بتقدير عالي.

همهم أحمد:

- آه طبعا أومال!

رمقته جنة شزرًا؛ فألجم لسانه وأخرس همهماته، فضحك هشام من شراسة حبيبته.. نعم حبيبته؛ فقد رفع قلبه راية الهيام ولم يعد بوسعِه الإنكار بعد الآن، لم يعُد يستطيع بدءَ يومه إلا بعد رؤية كلماتها الصباحية؛ فيردها بحنين بالغ، لم يعُد يعرف للتركيز دربًا إلا بعد الاطمئنان عليها، لم يعد بوسعه إغلاق جفونه قبل الاستماع إلى لحن صوتها العذْبِ ينشد بآذانه حلو الكلام وأروعه.

لأول مرة لم ينزعج هشام من شكل العلاقة بين أحمد وجنة؛ فقد راقت له تلك العائلة تمامًا، حتى بات يشعر أنه جزء منها، لقد أحبّهُم بصدق وهذا ما لم يفعله مع الكثير.

هتف أحمد بمرح:

- طب إيه؟ مش ناخد سيلفي بقى بالمناسبة الحلوة دي؟

وافقه الجميع، وشرع أحمد في التقاط الصور إلى أن رفض أن يكمل باقي الصور وهو ضحية للسيلفى؛ فاتخذ هشام مكانه ضاحكًا، وهكذا أصبحت جنّة بجانبه تمامًا يتوارَى جزءٌ منها خلفه، وما إن اتخذت وضعيتها حتى باتت جزءًا لا يتجزأ منه في الكاميرا؛ فالتقط هشام الصورة، والتي لفتَت نظره على الشاشة، التفتَ إليها هائمًا بعينيها؛ فأشارت بحاجبيها بما يعني "ماذا هناك؟".

فعاد إلى وعيه، لكن لقد حدث ما حدث؛ فالتقطَت الكاميرا الصورة عبر المؤقت دون أن يدري، أعاد الهاتف إلى أحمد وطلب منه إرسال الصور إليه.

في تلك الأثناء، وبينما انشغل الرجال بالحديث وإرسال الصور، وتبادل أرقام الهواتف، كان قد وصل طردٌ إلى المنزل بواسطة موظف التوصيل إلى المنازل، ضرب جرس الباب؛ فحدّقَت سارة بـجنة؛ فأومأت بعينيها، وراحت تفتح الباب قبل أن يستوقفها مالك:

- استنّي يا جنة أنا اللي هفتح.

فتح الباب ليظهر له أحد موظفي التوصيل؛ فسأله:

- أيوَه بس احنا ماطلبناش حاجة.

أشارت سارة بعصبية إلى جنة، فردّت من بين أسنانها بتوتر "طيب"، ثم لاحقت مالك قائلة:

- لا أنا.. أنا طلبته.

تغضّن جبينه استغرابًا، وأخذ الطرد وحاسب الرجل، ثم أعطاه إلى جنة متسائلًا:

- إيه ده يا جنة؟

ازدردت ريقها بتوتر وأجابت:

- هاه؟! حاجة.

- والله؟! هي دي إجابة المفروض.

- يووه.. هو تحقيق يا مالك؟ حاجة من الصيدلية.. و.. و..

استشعر مالك أن الأمر بات محرجًا؛ فآثر تغيير الموضوع قائلًا بحنو:

- خلاص يا حبيبتي.. تمام، أنا بس كنت بطمّن، انتِ عارفة الظروف اليومين دول.

ابتسمت بتردد، ثم قالت بسرّها:

- إيه اللي أنا قولته ده؟! الله يخرب بيتك يا سارة.

مضى الوقت حتى زارهم الليل بشفقِه؛ فعزم هشام على الرحيل مؤكدًا أنه سيوصّل جنة إلى منزلها بسلام، وقد كان.

وبينما كان يودعهما الجميع، وقف هشام ينبه مالك بصوت خافت:

- زيّ ما اتفقنا بقى.. ماتكسفناش النهاردة.

وعلى الجانب الآخر تكرّر جنة على مسامع سارة:

- سارة، فهمتي هتعملي إيه؟ ويلّا ابقي بلّغيني النتيجة.

غادر هشام وجنّة المنزل متجهين إلى سيارة هشام، حينذاك خفقَ قلبها؛ فبمفردها ستكون معه وبجانبه، ماذا إذا شعر بحبها الخفاق بقلبها؟!

- جنة! جنة!

- هاه.. نعم!

- نعم إيه؟ اركبي.

استقلّت السيارة بعدما تدفق الدم إلى وجهها ليعلن لِهيبَه، وربما لهيب قلبها بعدما زاره الحب.

انطلقت السيارة ولم تكن المسافة ببعيدة، فما كانت سوى بضع دقائق حتى يصلوا إلى المنزل، لكن جنّة تفاجأت به يتخذ مسارًا آخر قد يطيل المسافة؛ فتساءلت:

- هشام! انتَ ليه مشيت من هنا، الطريق اللي جينا منه كان أقرب.

- إيه؟ متضايقة من وجودك معايا ولا إيه؟!

أنكرت سريعًا:

- لا لا أبدًا.. أنا بس استغربت.

- امم بصراحة حبيت أتكلم معاكي شوية.

لا تعرف ماذا دهاها فشفق وجهها؛ فأردف معقبًا بابتسامة:

- شايفة لون السماء دلوقتي؟

- آه أحمر.. ده بيكون لون سما أكتوبر وقت الشفق، بحبه قوي.
- أهو وشك دلوقتى لونها بالظبط.

زيّنت شفتيها بسمة رقيقة عذبة، وازدادت صفحة وجهها احمرارًا؛ فقالت:

- على فكرة يا هشام انتَ غلس.

ضحك قائلًا:

- طب عيني في عينك كده.

حدقت بعينيه بتحدٍ، لكن ليتها لم تفعل ذلك؛ فهاتان العينان السوداوان قد رمت بشباك سحرها الأسود على قلبها وعقلها؛ فلم تعد ترى غيره في هذا الكون، وكأن العالم تجمد من حولهما، صفّقَ بإصبعيه أمام عينيها كي تستفيق؛ فاعتدلت بجلستها بخجل ليقول:

- ماخرجتيش انتِ بقالك كتير.. أكيد ملّيتي، صح؟
- ملّيت جدًا.
- طب إيه رأيك ناخد جولة دلوقتي؟
- بس.. بابا وماما.. يعني ماقولتش لحد وممكن يقلقوا عليّا.
- لا ماتقلقيش مش هنتأخر، ممكن نلفلف في الحُصري، وأهو نبقى قريّبين.

رحّبَت بالفكرة وارتسمت البهجة على محياها؛ فركن هشام سيارته ونزلا يترجلان في الحي السابع حيث المولات الصغيرة والمقاهي تفوح منها روائح

النرجيلة المختلفة، والمطاعم السورية والمصرية جنبًا إلى جنب، فضلًا عن المربع السوري الذي ما إن وصلاه حتى هتفَت جنة بابتهاج:

- الله.. الكنافة النابلسية بقالي فترة ماكلتهاش.. إيه رأيك أعزمك؟

ضحك هشام، وقال:

- ماعنديش مانع، مع إني أول مرة أجربها.

- صدقني هتحبها قوي.

- أكيد هحبّها طالما انتِ بتحبيها.

ابتسمَت وأطرقت برأسها خجلًا؛ فانتبه لما قاله مستطردًا:

- احم.. آه بس أنا اللي عازم.

لم ينتظر ردّها ودلف إلى المحل، وبعد دقائق خرج يحمل طبقَين وأعطاها أحدهما؛ فشرعت في تناولها بنهمٍ تتلذّذ بكل قطعة تذوب بفمها، وهشام لم يكن بوسعه ألّا يتأملها بابتسامة شغوفة، توقّفَت عن التهام الكنافة، ونظرت إليه متسائلة:

- ما بتاكلش ليه؟

- آه.. هاكل أهو.

تناول أول قضمة؛ فأشارت له بحاجبها بما يعني ما رأيك؛ فأجاب:

- امم، لذيذة.

مضَت دقائق، وهما يتناولان الكنافة، حتى صاحت جنة بشغف:

- واااو.. روايات، تعالَى بليز أشوف إيه الجديد اللي نزل.

- أوك، تعالِي.

وقفت أمام أحد الباعة بالطرقات، وكان يفترش على طاولة مجموعة من الكتب والروايات؛ فأخذت تتنقل بينهم بعينين فرحتين؛ فأدرك هشام مدى حبها للكتب، حتى سمعها تسأل البائع:

- لو سمحت بكام رواية evil under the sun ؟

- بـ ٤٥ يا آنسة.

أبعدها هشام بإشارة منه وابتاعها لها، لكنه أطال قليلًا عند الرجل؛ فأخذت تشبُّ على قدميها لترى ماذا يفعل، لكن قامته الفارعة لم تعطِها الفرصة، وما إن عاد إليها بادرت:

- لا انتَ عزمتني على الكنافة وقولنا ماشي، إنما الرواية هتاخد حسابها، و..

توقفت فجأة حينما أدركت أن بيدها روايتين وليست واحدة؛ فطالعتها لتجد عنوانها "الآن أقول أحبك".

ارتجف قلبها وطالعته بعينين هائمتين في ملكوت العشق؛ فلاحظت شفتيه بينما كان يقول:

- دي هدية مني ليكي، وأتمنى تعجبك و.. وأعرف رأيك.

أومأت برأسها وقد دمعت عيناها فرحًا، وكأنها تقول "وأنا أيضًا أحبك".

أخرجهما من تلك الحالة صوت موسيقى بدأت تطربُ آذانهما؛ فوجدا أنفسهما أمام مول زمزم، والذي كان يشهد حفلًا دعائيًا يقام أمامه لإحدى

المنتجات الغذائية، فكان هناك كرافان يتكوّن من طابقين مفتوح السقف، يعتليه فريق من الموسيقيين يعزفون أشهر الألحان العربية منها والغربية، قديمة وحديثة.

التَفّ حولهم المارة؛ فوقفا يتابعان بانبهار، أو بالأحرى كانت جنة تتابع العرض وهشام هائمًا في عالمها، كأنها تختلف عن كل الأناس المحيطين به، كان يتصوّر لو بإمكانه الرقص معها على تلك الألحان وينزل عليهما المطر ويختفي الجمع من حولهما، لكنه سرعان ما استفاق مهمهمًا "إيه أفلام أبيض وأسود د؟!"، أخذت تصفّق، ثم فتحت هاتفها لتسجل فيديو لذلك العرض الممتع، لكن حال دون ذلك شاب طويل وقف أمامها؛ فحجب عنها الرؤية، حاولَت رفع يدها أقصى مداها لكنها لم تعُد تلتقط شيئًا، فوجِئَت بيد هشام تلامس يدها وأخذ منها الهاتف ليسجله لها، وبينما كان يشاهد العرض من خلال شاشة الهاتف تراءَى له أمر مريب؛ فقام بتقريب المشهد وأدار الهاتف قليلًا إلى اليمين، اتسعت عيناه دهشة وأمسك بيد جنة وركض بها متّجهًا إلى سلّم المبنى التجاري خلفه -سنتر الأمريكية-، صُدمت لفعلته وتملكها الخوف؛ فارتجفَت ساقيها، ولم تعد تستطيع الركض بها على الدرج؛ فباغتها هشام بحملها بذراع واحد وركض بها الدرج، ثم أنزلها لتختبئ تحت الدرج مباشرة، تعجّب أصحاب المحلات وبدأوا في الهمهمة؛ فأشار لهم هشام بالصمت معربًا أنه ضابط؛ فالتزموا الصمت، واعتلى هو قليلًا درَجًا آخر من

الناحية الشرقية للمبنى، واختبأ خلفه ليبصر أحدهم فتأكدت ظنونه، كان يراقبهُما، وبعدما فقدهما أصبح عصبيًا؛ فأمسك بهاتفه ليتحدث قائلًا:

- كانوا قُدّامي وضيعتهم.

لم يسمعه هشام، لكنه ضليع في فهم حركات الشفاه، نزل مرة أخرى إلى جنة وأخذها ليركض بها إلى سيارته منطلقًا ينهبُ الأرض نهبًا، لكنها لم تعد تحتمل عدم الفهم أكثر من ذلك؛ فأطلقت عليه وابلًا من الأسئلة:

- يا هشام قوليّ إيه اللي حصل؟ كان فيه حد عايز يقتلني.. مش كده؟
- ماتخافيش يا جنة، اهدِي، ماحدّش هيمسّك طول ما أنا عايش.
- يعني كان فيه حد فعلًا؟
- أيوَه، بس ماكانْش مستهدِفك انتِ.
- تقصد إيه؟ إنه كان...
- أيوَه، كان بيراقبني أنا.
- طب.. طب هو عايز منك إيه؟
- ماتشغليش بالك انتِ، أنا هعرف ازّاي أتصرّف معاه.

تجلّت أمارات الذعر والقلق على وجهها، وكأنها لم تكن خائفة على حياتها مثلما تخاف عليه الآن، لاحظَ هشام خوفها والدموع المتحجّرة في مقلتيها، والكلمات المتعثرة على شفاهها؛ فركن سيارته جانبًا، والْتفَتَ إليها، في تلك اللحظة نسيَ الحدود والقيود، ومدّ يده لتضم يديها المرتعشتين؛ فنزلت

دموعها الساخنة على كفيه، مد إحدى يدَيه وكفكَفَ دمعها برفق، ثم أردف بنبرة حانية:

- جنة بصي لي.. مش عايزِك تخافى أبدًا ولا تقلقي من حاجة، خلاص الموضوع قرّب ينتهي.

- بس.. بس أنا مش خايفة من القضية ولا خايفة على نفسي.

- عارف.. عارف إنك خايفة عليّا زي ما أنا بترعب عليكي.

ارتفعت بناظريها لتلتقي بعينيه بخجل تمثّلَ في تورد وجنتيها؛ فقالت بتلعثم:

- يعني.. انتَ.. أقصد عارف..

"أيوَه يا جنة عارف إن فيه في قلبك مشاعر ليّا، ومش هكذب عليكي أنا أول مرة أحس الإحساس ده.. عارف إنِّك بتحبيني وأنا كمان... بحبك!"

كان ذلك الرد ما تتوقُ له روحه كي يخبرها إياه، لكن عقله نهاه عن ذلك، وعنّفه على تلك الحماقة؛ فأردف:

- زي ما قولتلك مش عايزِك تخافي، عايزِك بس تخلّي بالك من نفسك وتاخدي كل الاحتياطات اللي قولتلك عليها، توعديني بِدَه؟

أجابته بتردّد:

- أوعدَك، بس برضه قلقانة عليك، افرِض اللي بيراقبك ده فضل وراك و.. وبعد الشر حصل حاجة.

ازدادت دموعها في الانهمار؛ فقال محاولًا تهدئتها:

- جنة، جنة! اسمعيني.. صدقيني بإذن الله مش هيحصل لي حاجة، أنا أعرف كويس امتى أتفادَى الخطر وامتَى أواجهه، انتِ مش واثقة فيّا ولا إيه؟

غمرته بنظرة وَلَهٍ وقالت بابتسامة:

- بثِق فيك أكتر ما تتخيل، بثِق فيك أكتر من نفسي.

كانت كلماتها بمثابة خنجر اخترق قلبه، يعلم جيدًا أنه ليس أهلًا لهذه الثقة، فها قد غرسَ بقلبها وُرُود الحب، ولكن ماذا سيجني منها سوى شوكها!